

ماهي كتب كيو - تي؟¹

ديفيد ريغل²

الجزء الثاني

تتشارك البوذية مع الجاينية³ - وهي ديانة هندية ثانية لا تؤمن بآله - في كونها تمتلك أفضل سجل بين أديان العالم في مجال نبذ العنف وعدم الاعتداء، مما يتيح ممارسة الحق الإنساني الأساسي في العيش بسلام. ومما تجدر ملاحظته أن نموذج "البوديساتفا" (الكائن الساعي نحو الاستنارة) لا يمكن أن يؤدي دوره بفعالية في سياق ديني يؤمن بآله؛ ففي مثل هذا السياق، يُعدُّ الله هو المُخلَّص، وبالتالي يغدو وجود "مُخلَّص" بشري - أي البوديساتفا - بلا وظيفة. وكما يبيِّن التاريخ، فإن هذا يمثل اختلافاً جوهرياً تترتب عليه عواقب عملية.

¹ Kiu-te.

² David Reigle.

³ Jainism.

وهذا اللاإلهية، مرة ثانية، هي أيضاً الموقف المميز للفلسفة
التيوصوفية، كما يظهر في المقتطفات التالية من رسائل
المهاتما.

لا فلسفتنا ولا نحن نؤمن بإله، وبخاصة ذلك الإله الذي يتطلب
ضمير الإشارة إليه كتابةً بحرف كبير.

[إن عقيدتنا لا تعرف المساومات؛ فهي إما تثبت الشيء أو
تنفيه، إذ لا يُعلم إلا ما يتيقن أنه الحقيقة. وعليه، فإننا ننفي
وجود إله، سواء بصفتنا فلاسفة أو بوذيين. نحن ندرك وجود
كائنات روحية -كالكائنات التي تقطن الكواكب وغيرها- لكننا
نعلم أنه لا وجود لإله في نظامنا الكوني، لا في صورة شخصية
ولا في صورة غير شخصية... فاله اللاهوتيين ليس سوى قوة
متخيلة... وهدفنا الأسمى هو تحرير البشرية من هذا الكابوس،
وتعليم الإنسان الفضيلة لذاتها، وحثه على المضي في حياته
معتمداً على ذاته، بدلاً من الاتكاء على "عكاز" لاهوتي كان -
على مدى عصورٍ لا تُحصى- السبب المباشر في جلّ معاناة
البشر].

وعليه، فإن اللا-إلهية هي الإطار العملي الوحيد لمثل
«البوديساتفا» —وهي أيضاً مثل «التيوصوفيا» — وتوفر
البوذية هذا الإطار لنصوصها التانترية، بينما لا توفره
الهندوسية.

قد تساعد هذه الحقائق في وضع مسألة "التانترا" في منظور
أدق بالنسبة لاتباع الحركة التيوصوفية. وعلى أية حال، تجدر

الإشارة إلى أن اعتبار كتب "كيو-تي" مرادفةً لنصوص "التانترا" في البوذية التبتية ليس مجرد نظرية أو فرضية، بل هو حقيقة يمكن التحقق منها لكل من يبذل الجهد اللازم للتأكد من ذلك.

بالنظر إلى أن كتب "كيو-تي" تمثل التانترا البوذية التبتية، يظل السؤال مطروحاً حول أيٍّ من هذه التانترا البوذية العديدة تُعدُّ المصدر الفعلي لـ "سور دزيان" ويقودنا هذا أيضاً إلى مسألة الكتب العلنية والكتب السرية ضمن مجموعة "كيو-تي". إذ يُقال إن جميع التانترا البوذية الرئيسية الموجودة اليوم ليست سوى نسخ مختصرة من أصولها الأصلية؛ فمثلاً، يُعتبر "تانترا غوهياساماجا"⁴ المتداول حالياً اختصاراً للأصل المفقود الذي كان يقع في 25,000 بيت، كما يُعد "تانترا كالاشاكرا"⁵ المتداول اختصاراً للأصل المفقود المكون من 12,000 بيت، وهكذا. وبناءً عليه، فإن النسخ المختصرة المتاحة تعكس بشكل مباشر المضمون الموضوعي للأصول المفقودة - أو "السرية" - لأي تانترا بعينها. ومن بين التانترا الموجودة حالياً، نجد أن "تانترا كالاشاكرا" هو الوحيد الذي يتناول موضوع نشأة الكون (الكوزموغونيا)⁶. تتألف ممارسات السادانا⁷ التانترية من مرحلتين: مرحلة التوليد

⁴ Guhyasamaja Tantra.

⁵ Kalachakra.

⁶ Cosmogony.

⁷ Sadhana.

ومرحلة الاكتمال؛ وتتضمن مرحلة التوليد في أي "سادانا" خلق عالم رمزي داخل الفكر. ومع ذلك، فإن "تانترا كالاشاكرام" هو وحده الذي يقدم وصفاً لنشأة الكون، وهو وصف يمكن تطبيقه على المستوى الخارجي (أي على الكون بأسره) أو على المستوى الداخلي (أي ضمن ممارسة "السادانا"). وفي هذا السياق، يكتسب الاطلاع على ما ذكرته الأدبيات الثيوصوفية اللاحقة حول كتاب دزيان أهمية بالغة. يُشاع أن الجزء الأول منه (المكون من المقاطع الستة الأولى) يعود أصله إلى ما قبل وجود هذا العالم بأسره، بل ويُقال إنه ليس سرّاً تاريخياً، بل مجموعة من التوجيهات؛ فهو أشبه بصيغة للخلق لا بسرٍ لكيفية حدوثه.

كما يتميز "كالاشاكرام تانترام" عن غيره من نصوص "التانترام" بارتباطه بأرض "شامبالا"⁸ المقدسة. وتذكر التقاليد أن ملك "شامبالا" طلب تعاليم "كالاشاكرام" من "غوتاما بوذا"، ثم عاد بها إلى "شامبالا"، حيث أصبحت تلك التعاليم هي الديانة الرسمية للدولة. ومن "شامبالا" انتقلت النسخة المختصرة من "كالاشاكرام تانترام" إلى الهند والتبت.

بناءً على هذا الدليل وغيره مما ورد بالتفصيل في ورقتي البحثية "ضوء جديد على كتاب دزيان" فإنني أرجح أن سور دزيان قد تُرجمت عن نص «كالاشاكرام تانترام الأصلي» المفقود. وتظل هذه، في الوقت الراهن، مجرد فرضية وليست حقيقة.

⁸ Shambhala.

مؤكدة. ومع ذلك، وبالنظر إلى أن «كتب كيوتى» هي بلا شك نصوص «التانترا» البوذية، وإدراكاً لحقيقة أن «كالاشاكر تانترا» هو نص «التانترا» البوذي الوحيد الذي تشغل فيه نشأة الكون دوراً جوهرياً، فإن هذه الفرضية تبدو قوية للغاية. إذا كانت "مقاطع دزيانق د ثرجمت بالفعل من نص "كالاشاكر تانترا الأصلي المفقود، فما هي دلالة هذه المعلومة؟ يتألف نص "كالاشاكر تانترا" -بصورته المتاحة اليوم، على غرار نسخته المفقودة الموصوفة في تعليق "فيمالابرا⁹" من خمسة أقسام تغطي ثلاثة أنواع من تعاليم "كالاشاكر"، تُصنف كتعاليم "خارجية" و"داخلية" و"غيرها". ويُعد القسم الأول، الذي يتناول "كالاشاكر الخارجية" -وهو القسم الوحيد الذي يُسمح بمناقشته علناً وفقاً للتقاليد التبتية- هو القسم الذي يتضمن نظرية نشأة الكون (الكوسموغونيا). ونظرية نشأة الكون هذه، التي تشكل جزءاً كبيراً من المادة الموضوعية في كتاب "العقيدة السرية أكثر تفصيلاً بكثير مما ورد في نص "كالاشاكر تانترا" المتاح حالياً. لذا، فليس من المستبعد أن يكون الطرح الوارد في "العقيدة السرية" هو النسخة الكاملة المستمدة من نص "كالاشاكر تانترا" الأصلي غير المختصر. ومن البديهي أن يكون هذا الطرح مستمداً من القسم الأول، تاركاً الأقسام الأربعة الباقية -التي تغطي جوانب "كالاشاكر" الداخلية و"الثانية"- دون تناول. وربما كان من المقرر أن يظهر جزء من هذه المواد في المجلدات اللاحقة التي خُطت

⁹ Vimalaprabha.

لإضافتها إلى "العقيدة السرية"، لكنها لم تُنشر قط. وعلى أية حال، أصبح بإمكاننا اليوم الاطلاع على هذه المواد في صورة موجزة ضمن نص "كالاشاكرا تانترا" المتاح (وإن لم تتوفر ترجمة إنكليزية له بعد). ومع غياب التبريرات التفصيلية، يظل النظام متكاملًا في هيكله الأساسي، بما في ذلك ممارساته أو ما يُعرف بـ السادهانا التي تدمج بين جوانب "كالاشاكرا" الخارجية والداخلية و"والثانية". وبذلك، فإن ما نجده في نص "كالاشاكرا تانترا" وممارساته (السادهانا) يمثل صيغة شاملة لممارسة روحية قادمة من "شامبالا"، وهي في جوهرها النظام ذاته الذي يقوم عليه كتاب "العقيدة السرية". ولعل هذا النظام يمثل أقوى أشكال خدمة العالم المعروفة على وجه الأرض اليوم.

قبل اتخاذ قرار الشروع في هذه الدراسة والممارسة، من الحكمة النظر في بعض الحقائق المهمة. ثمة سبب وجيه يجعل الممارسات الباطنية -من هذا النوع- "مقصورة على قلة قليلة". فلا ينبغي البدء بأي "سادانا" (ممارسة روحية) تانترية دون الحصول على "المساررة" الخاصة بها، وهو ما يمنح الإذن ويوفر الحماية. وعندما يتلقى الأفراد هذه المساررة التانترية، فإنهم يقطعون على أنفسهم عهداً بممارسة -على الأقل- النسخة المختصرة من هذه الطقوس يومياً، طوال ما تبقى من حياتهم. وتُعدّ "السادانا" شكلاً صعباً من أشكال التأمل، إذ تتطلب عمليات تصوّر ذهني معقدة، وعادةً ما تقتصر بسنوات من دراسة النصوص المتعلقة بها. وقبل الشروع في ممارسة "السادانا"، ينبغي للممارس أن يكون قد بلغ مستوى

من التركيز يمكنه من منع عقله عن الشرود بعيداً عن موضوع التأمل طوال فترة الجلسة التأملية (وهو ما يُعرف بالمرحلة الرابعة من حالات الوعي الثابتة التسع، أو "سيتا-ستيتيس")¹⁰. ونظراً لأن هذا النوع من الممارسات عملٌ ذاتيٌّ باطني، فإن نتائجه لا تكون عادةً جليةً للممارس نفسه. بل إن الأهداف المحددة لهذه الممارسات ليست واضحة ومباشرة كما هو الحال في الأنشطة الخارجية، كالمشاركة في حركات السلام أو القضايا البيئية. فإذا كان من الصعب الحفاظ على الالتزام بتلك الأهداف الخارجية، فكم بالأحرى الالتزام بـ "سادانا" تانترية تزر بـ "آلهة" غريبة وغير مألوفة، ومانترا (تعاويذ) عصية على الفهم، ورموزٍ مجهولة؟ ومن بين مختلف ممارسات "السادانا" في التانترا البوذية، تُعدّ "سادانا الأكثر تعقيداً وصعوبة؛ إذ إن ممارساتها التمهيدية "كالاشاكرا وحدها تفوق في طولها العديد من طقوس "السادانا" الكاملة. ولهذا السبب، لا يمارسها سوى قلة قليلة من آلاف "اللامات" (المعلمين الروحيين) الذين يؤدون يومياً طقوس "السادانا" التانترية من أجل نفع الكائنات الحية.

¹⁰ citta-sthitis.